

Volume: 2, Issue: 4, September 2020

RIMAK

International Journal of Humanities and Social Sciences

ISSN: 2717-8293





www.rimakjournal.com

Rimak International Journal of Humanities and Social Sciences

ISSN: 2717-8293

Mohamed KALOU[1]

TOLERANCE IN THE LIGHT OF THE NOBLE QUR'AN

Research Article

Received: 15/07/2020
Accepted: 27/07/2020
Published: 01/09/2020

This article has been scanned by **iThenticat**
No plagiarism detected

Abstract:

Tolerance is the focus point for all the different fields of life. History is the true witness and speaker fort he tolerance which connected Muslims with people of other religions. The Quran calls for dealing others with the best way. Among the principles of Islam is not coercing anyone for faith. The enemies witnessed fort he tolerance of Muslims. Our Islamic heritage is full of tolerance at the theoretic and practical level and we do not need to dig in our heritage to show this fact. Because tolerance with its ideal form was a light that our past people lived under it. This happened in a practical manner when our Prophet (pbuh) acknowledged religious freedom in the first constitution of Madinah whereby He agreed that the Jews constitute a single society with Muslims and when He welcomed the visitors from Nejashe from the Christians of Ethiopia and served them himself. He also welcomed Christians from Nejran. This way Islam dealt with tolerance at all discrimination and stratification events and made people equal regarding rights and obligations to achieve many interests which benefits humanity.

Key words: Tolerance, Tolerance rules, Religious freedom, Heritage.

[1]Prof. Dr. , Adiyaman University, Turkey, mkalou40@gmail.com

التسامح في ضوء القرآن الكريم

محمد محمود كالو[2]

الملخص

التسامح هو نقطة الارتكاز في جميع مجالات الحياة المختلفة، والتاريخ شاهد صادق وناطق بالتسامح الذي ربط علاقات المسلمين بباقي أهل الديانات الأخرى، حيث دعا القرآن إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن أساسيات مبادئ الإسلام عدم الإكراه في الدِّينِ، وقد شهد الأعداء بتسامح المسلمين، وتراثنا الإسلامي زاخر بهذا التسامح على المستوى النظري والعملي، ولا نحتاج لحفر في التراث لإبراز ذلك؛ لأن التسامح في صورته المثلى كان نبراساً لواقع عاش فيه سلفنا الصالح، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًا حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حين اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وحين استقبل النبي ﷺ وفد النجاشي من نصارى الحبشة، وقام يخدمهم بنفسه، كما استقبل وفد نصارى نجران، وهكذا قضى الإسلام بالتسامح على جميع مظاهر التفرقة والطبقية، وسوَّى بين الأفراد في الحقوق والواجبات؛ لتحقيق كثير من المصالح التي تفيد الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: التسامح، ضوابط التسامح، الحرية الدينية، التراث.

[2] د.، جامعة أديامان، تركيا، mkalou40@gmail.com

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن التسامح من القيم الإنسانية الراقية، والمبادئ الإسلامية الفاضلة، وحقيقته: حب الخير للغير، واحترامهم وتقديرهم، واللين في التعامل معهم، ومقابلتهم بالإحسان، ورؤية فضلهم وحسناتهم، والصفح عن أخطائهم وزلاتهم.

والتسامح هو نقطة الارتكاز وحجر الزاوية في جميع مجالات الحياة المختلفة، والتاريخ شاهد صادق وناطق بالتسامح الذي ربط علاقات المسلمين بباقي أهل الديانات الأخرى، حيث دعا القرآن إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن ومحاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125].

فمن أساسيات مبادئ الإسلام عدم الإكراه، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:256].

وقد قال النبي ﷺ: (لَتَعْلَمُ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ)3.

ولقد شهد شاهد من أهلها بتسامح الإسلام حين ذكر (توماس وأرنولد) بأن: "التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول للهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرَّة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح"4.

يهدف البحث إلى إظهار جوانب من التسامح الإسلامي، وأنه مسلك خلقي لا يتعارض مع المقاصد الكلية للإسلام، وتراثنا الإسلامي زاخر بهذا التسامح على المستوى النظري والعملي، ولا نحتاج لحفر في التراث لإبراز ذلك؛ لأن التسامح في صورته المثلى كان نبراساً لواقع عاش فيه سلفنا الصالح، ومن أعظم الجوْر أن ينعت الإسلام بدين العنف والإرهاب مع أنه دين السلام والتسامح، وهذا لا يعني التنازل أو الحياد، بل هو الاعتراف بحقوق الآخرين، والاحترام المتبادل، وهو وحده الكفيل بتحقيق العيش المشترك بين الأمم والشعوب، ومدّ سبل التعاون مع الآخرين والتواصل معهم، باختلاف ألوانهم وألسنتهم، وتحقيق كثير من المصالح التي تفيد الإنسانية.

فهل الإسلام دين التسامح أو العنف؟ وما مفهوم التسامح؟ وهل التسامح يعني التنازل عن المبادئ والقيم؟ وهل مارس النبي ﷺ التسامح بأنواعه؟

لقد بنى الإسلام علاقة المسلمين مع بعضهم على المحبة والأخوة فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:10]، وبنى علاقة المسلمين مع غيرهم على التعارف والتعاون فقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

ولَفَتَ القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى قضية الإيمان، وبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، فقال ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [الشورى: 48].

وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، فقضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

ثم إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيداً عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِ يَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، فإذا لم يَصِل الحوار إلى نتيجة فلكلٍّ دينُه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان نبينا محمد ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:6].

وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًّا حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ)5.

3- رواه أحمد ابن حنبل في المسند، من حَدِيثُ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث رقم 24311.

4- الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، تأليف: سير توماس، وأرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1971م: 69-70.

5- السيرة النبوية لابن هشام، تعليق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة، 1410هـ 1990م:55/4.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير على دربه ويطبق ما رسمه الله تعالى للدعاة حين دخل بيت المقدس "أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم"6.

ويظهر التسامح جلياً حين استقبل النبي ﷺ وفد النجاشي من نصارى الحبشة، حيث "قَامَ يَخْدُمُهُمْ بِنَفْسِهِ، فَقُلْنَا: تُكْفَى ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ)"7.

كما استقبل وفد نصارى نجران، ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، مع أبي حارثة أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وفرش لهم عباءته، (دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِهِ، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «دَعُوهُمْ»، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ)8.

وقبل النّبيُّ ﷺ هديةً من المقوقس في مصر، وهي الجارية التي أنجبت إبراهيمَ ولد المصطفى ﷺ (مارية القبطية) ثمَّ وقف فقال: (إِذَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا)9.

وهكذا قضى الإسلام بالتسامح على جميع مظاهر التفرقة والطبقية، وسوَّى بين الأفراد في الحقوق والواجبات، وأمر المؤمنين كافة بالدخول في السِّلْم حتى يتسنى لهم تبادل المنافع وإشاعة الخير بين الناس.

الدراسات السابقة:

لقد كتب عن التسامح كثيرون ولكن كان تناول جُلِّهم جزئياً لمعنى التسامح في الإسلام، أو ركزوا على النصرانية في مجال التسامح مع الغرب، وقليل منهم تناول دعوى التسامح الغربي مع المسلمين في العصر الراهن، نذكر منهم:

- التعصب والتسامح في الإسلام والنصرانية للشيخ محمد الغزالي.
  حيث قارن بين الإسلام والمسيحية في مجال التسامح، وناقش بعض الشبهات وردَّ عليها.
- سماحة الإسلام للدكتور أحمد الحوفي.
  حيث اهتم المؤلف ببيان التسامح الإسلامي بشكل عام، وردَّ على بعض المستشرقين.
- الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون.

وهو كتاب في مجلدين، لكنه عندما تطرق إلى نظام الحكم في الإسلام ذكر سماحة الإسلام في العقيدة والتعبد والترابط الاجتماعي.

- صور من سماحة الإسلام للدكتور عبد العزيز الربيعة.
  وقد تناول يسر الإسلام في مجال تشريع الأحكام وعرض بعض القضايا التي تبرز سماحة الإسلام بشكل عام.
- تسامح الإسلام وتعصب خصومه للدكتور شوقي أبو خليل.

ناقش فيه آراء المستشرقين وأبدع في بيان التسامح الإسلامي نظرياً وعملياً، ثم قارن معاملة النصارى بغيرهم بشكل موجز.

- العدل والتسامح الإسلامي للأستاذ أحمد المخزنجي.

وقد غلب على هذا الكتاب الأسلوب الوصفي والتاريخي الموجز، فذكر التسامح الإسلامي في عهد الرسول ﷺ، ثم عرض لغير المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين.

- السماحة في الإسلام والمسيحية للدكتور إبراهيم الوقفي.
  الذي تجنَّب الصواب حين حاول أن يلوي أعناق النصوص كي يساير الواقع المعاصر.
- سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجاً وسيرة للدكتور عبد العظيم المطعني. الذي عرض لسماحة الإسلام بشكل وصفي، وضوابط القتال في الإسلام.
- سماحة الإسلام في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة للشيخ سليم الهلالي.

6- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (د.ت):3/ 609.
7- مكارم الاخلاق لابن أبي الدنيا، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُكَافَأَةِ بِالصَّنَائِعِ، حديث رقم 361.
8- دلائل النبوة للبيهقي ، رقم الحديث: 2133.
9- المعجم الكبير، للطبراني، مَا أَسْنَدَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، حديث رقم 14854

وهو كتاب صغير تحدث فيه عن سماحة الإسلام من خلال القرآن والسنة، وحذَّر من المفاهيم الخاطئة كالخلط بين الولاء والتسامح.

- تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، لعبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف الحسين. الذي أزال اللبس عن بعض المفاهيم الخاطئة، ودحض بعض الشبهات الغربية التي تثار حول تسامح الغرب وتعصب المسلمين.

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث حين يعبر عن تميز هذا الدين الحنيف الذي يدعو للتواصل مع الآخر، ويفند الشبهات والأفكار الخاطئة التي يروّجها بعضهم لتشويه سمعة هذا الدين، كما يوضح حقيقة التسامح لمن التبس عليه الأمر من المسلمين بين التسامح والتنازل عن المبادئ، أما الخلاف في الأديان واللغات والقوميات فسنة كونية وظاهرة بشرية لا ينبغي أن تكون سبباً للخصام والعداء، بل يجب استثمارها لصالح الإنسانية وإثراء الساحة بكل مفيد وجديد؛ لذا أحببتُ أن أكتب عن التسامح في ضوء القرآن الكريم، مستقرئاً النصوص، ومستنطقاً دلالاتها، مع الاستفادة من مشاهدات التاريخ والواقع، وقد قسمت الدراسة بعد هذه المقدمة إلى مبحثين وخاتمة على الشكل التالي:

- المبحث الأول: مفهوم التسامح: التأصيل والضوابط.
- المبحث الثاني: أنواع التسامح في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب:
- المطلب الأول: التسامح الديني.
- المطلب الثاني: التسامح السياسي.
- المطلب الثالث: التسامح الاجتماعي.
- الخاتمة وهي شاملة لأهم النتائج.

المبحث الأول: مفهوم التسامح: التأصيل والضوابط

التسامح لغة:

مادة (سمح) أصلٌ يدل في عمومه على السلاسة والسهولة10.

وقال ابن منظور: "والسماحُ والسماحة: الجود... وسمحَ وأسْمحَ إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء"11.

وقال الفيروز آبادي: " والتَّسْميحُ السَّيْرُ السَّهْلُ، وتثْقيفُ الرُّمْحِ والسُّرْعَةُ والهرَبُ والمساهَلَةُ كالمسامحة، ... وتسامَحوا: تَساهَلوا"12.

فخلاصة ما أوردته معاجم اللغة لهذه المادة اللغوية من معانٍ نختزلها في مدلولين اثنين:

الأول: بمعنى الجود والكرم.

والثاني: بمعنى التسَّاهل.

التسامح اصطلاحاً:

قال محمد الطاهر بن عاشور: "السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها، السماحة: سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل. وهي راجعة إلى معنى الاعتدال، والعدل، والتوسط"13.

وقال أبو الأعلى المودودي: "التسامح إنما معناه أن نتحمل عقائد غيرنا وأعمالهم على كونها باطلة في نظرنا ولا نطعن فيهم، رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم، طعنا يؤلمهم ولا نتوسل بالجبر والإكراه لتحريفهم عن عقائدهم أو صدهم عن أعمالهم. ومثل هذا التحمل وإعطاء الناس الحرية في العقيدة والعمل على هذا الوجه، ما هو بفعل مستحسن فحسب،

10- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء الكتب العلمية، إيران: 99/3.

11- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت: (سمح).

12- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق :محمد نعيم العرقسوسي (بيروت :مؤسسة الرسالة، ط 6 ، 1419 ه / 1998م) باب الحاء، فصل السين، ص 225.

13- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ - 2004م: 188/3.

بل هو، مع ذلك، أمراً لابد منه لاستبقاء الأمن وحسن التفاهم والتعايش بين عدة جماعات مختلفة في عقائدهم ومبادئها وأعمالها"14.

ويقول الدكتور محمد فاروق النبهان بأن التسامح يعني: " التساكن والتعايش في إطار رؤية إسلامية تحترم حق الآخر في الرأي والفكر والعقيدة"15.

نلاحظ مما سبق من التعريفات أنها استقت الفهم اللغوي لكلمة التسامح، وخصصته للمسلك التعاملي، التي تتسع للفكر والرأي والمشاعر والتعايش، كما لم تحدد مقاصد السماحة، لكن بعض النقاط جديرة بالاهتمام كذكر ابن عاشور: "الاعتدال والوسطية "التي تبرز المسلك الخلقي، ثم يضبطها بأنها "لا تفضي إلى ضرر وفساد"، وليس من الدقة تحديد السماحة عند "التَّحمل لعقائد غيرنا" كما ذكر المودودي -دون التأكيد على مقاصد الإسلام من هذا المسلك الخلقي، ولعل هذا الإسراف في الفهم الظاهري هو الذي حمل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إلى منع هذا المصطلح حين قال: "من الخطأ بمكان أن توصف الأحكام التي تنظِّم علاقة المسلمين بالكتابيّين في أي حال من الأحوال بالتسامح... إنَّ نعتَ أحكام أهل الذمة بالتسامح لا ينصف الإسلام... وإنما هي كلمة درجت على ألسنة طائفة من الكتّاب والباحثين في هذا العصر"16.

ولكنني أرى أن هذا المصطلح صحيح ومشروع في معاملة الناس جميعاً، وخاصة أنه موافق للمعنى من حيث الاشتقاق اللغوي، فالتسامح" لا يعني التساهل والتمييع للهوية الإسلامية، والتنازل عن قيمه وتصوراته إذ من الواجب أن تبقى الثوابت لها اعتبارها، في حين أن الإسلام يمدُّ سبل التعاون الفعال مع الآخرين والتواصل معهم معبراً عن صدق مبادئه وواقعيتها، وشمول نظامه وفاعليته"17.

صحيح أن التسامح يكون مفهوماً ومقبولاً حين نتحدث عن التاريخ ونقارنه بتعصب الآخرين، أما عندما نكون بصدد عرض علمي لموقف الإسلام من الآخرين فلا يبقى ثمة مكان لهذا الوصف، بل ربما استخدامه يقلل من قيمة الموقف الإسلامي.

التأصيل لكلمة التسامح:

لم ترد كلمة (التسامح) بلفظها في القرآن الكريم، لكن ورد في نصوص القرآن الكريم كثير من التوجيهات الداعية إلى الرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين، كالصفح والعفو، والسلام ونحوها، لأن الإسلام لا يقر الانفعالات النفسية التي تغلب عليها العاطفة، ولا يقر القهر والانتقام، لذا فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:126] تمثل قاعدة أساسية في التعامل مع الآخرين، إذ يُغَلِّب العفو والمسامحة على مقابلة العقاب بالمثل.

وقال تبارك وتعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:199].

"هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: (خُذِ الْعَفْوَ) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله: (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة"18.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34].

14- التسامح في الإسلام، مقال لأبي الاعلى المودودي، تعريب محمد عاصم الحداد، نشر في مجلة (دعوة الحق) المغربية، العدد:21.

15- مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، محمد فاروق النبهان، بحث منشور في مجلة المنهل، العدد 518، مجلد 56، ربيع أول 1415هـ أغسطس 1994م: 22.

16- الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى، 1414هـ 1993م: 144.

17- التسامح الإسلامي، قراءة في معطياته الفكرية وآثاره الواقعية في ضوء الكتاب والسنة، د. عبد الواسع محمد غالب الغشيمي وغيره، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد:21، ربيع الأول 1434هـ فبراير 2013م: 19.

18- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964م: 344/7.

أي بالخصلة الحسنة ادفع السيئة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم بالإحسان إليهم، فذلك فضل منك على المسيء، "بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، وذلك فيما بين الأفراد وكذلك بين الجماعات إذ لم يفض إلى استمرار الضر"19.
وقال سبحانه وتعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92].
والتثريب: التوبيخ والتقريع. والظاهر أن منتهى الجملة هو قوله: عليكم، لأن مثل هذا القول مما يجري مجرى المثل فيُبنى على الاختصار فيكتفي بـ (لَا تَثْرِيبَ) مثل قولهم: (لا بَأسَ)، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11] وزيادة (عَلَيْكُمُ) للتأكيد، فقد سمح لهم سماحاً تاماً، ودعا لهم بالمغفرة، دون أن يعيّرهم بالذنب السابق، وهذا منتهى الإحسان.
ومن ذلك أيضاً قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:22].
والاستفهام في قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ إنكاري مستعمل في التحضيض على السعي فيما به المغفرة وذلك العفو والصفح في قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ فإذا عاملتم عبيده، بالعفو والصفح، عاملكم بذلك، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح والتسامح.

المبحث الثاني: أنواع التسامح في القرآن الكريم

في الحقيقة التسامح أنواع كثيرة فبعضها أشمل من بعض، وبعضها متداخل مع بعضها الآخر، فالتسامح الفكري والعلمي يشملهما التسامح الديني أو السياسي، والتسامح الثقافي وثيق الصلة بالتسامح الاجتماعي، لذا قسمتُ التسامح في القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع أساسية:

المطلب الأول: التسامح الديني

الأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلةً لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله تعالى على مدى التاريخ الإنساني، فمن أصول الإيمان في الإسلام: الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285]. فالأنبياء إخوة، لا تفاضلَ بينهم مِنْ حيث الرسالة، ومن حيث الإيمان بهم، ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود، فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل، ولم يُكرِهوا أحداً على الدخول في الإسلام، فالحرية الدينية من المبادئ الإسلامية، الذي أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[البقرة:256] وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29].
كما كفل الإسلام حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيداً عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. وعلى أساس هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:46].
فإذا لم يَصِل الحوار إلى نتيجة فلكلٍّ دينُه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان نبينا محمد ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:6]، وهذه الآية دليل واضح على أن الإسلام يقبل الآخر المخالف، فقد سمَّى الله تعالى الشرك ديناً رغم كونه واضح البطلان.
ولقد رسَّخ الإسلام في قلوب أتباعه أن لا عداوة بين المسلمين وغيرهم لمجرد كونهم غير مسلمين، وترك الأمر ليوم القيامة، اللهم إلا إذا اعتدوا على المسلمين ووقفوا حجر عثرة أمام دعوتهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

19- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر – تونس، طبعة 1984هـ: 130/13.

قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113] ومن هنا لا يحق لأحد أن يفرض العقيدة بالقوة والإكراه على من خالفها في الدين، وفي ذلك ضمان لحقوق الإنسان الأساسية.

أما قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:109].

فإن هذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في ردِّ المؤمنين وإدخال الشُّبهات عليهم بكل طريق يقدرون عليه، وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم، ولكن من لطف الله تعالى أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم، لذا أمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره.

إلا أن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى- ينظر إلى التسامح الديني من منظور آخر فيناقش الآيات التي يوحي ظاهرها بالتعصب الديني، وهي الآيات التي ما يبترها المتصيدون عادة عن سياقاتها للطعن في تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51]. فيرى الغزالي: أنها مبتورة عن سياقها وهي تتحدث عن فرقة من أهل الكتاب تآمرت مع المنافقين، وليست الآية بصدد إقرار حكم عام على أهل الكتاب20.

ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:57] والتي يراها الشيخ الغزالي بديهية لا تحتاج إلى تفكير وتأمل ولا تدل على تعصب الإسلام ضد أهل الكتاب، "فهل هناك ضير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة الذين يتهكمون بتعاليمه، ويسخرون من شعائره؟!"21.

وقد وضع القرآن جملة آداب في التعامل مع المختلفين دينياً على قاعدة البرّ والإقساط، فقال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8] والبرُّ هو أعلى درجات حسن الخُلُق، ومنه بِرُّ الإنسان لأمِّه وأبيه، وقد ندبتْ إليه الآية الكريمة في التعامُل مع المسالمين من غير المسلمين، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:90].

ويستلهم الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله تعالى - من آيات القرآن الكريم ضوابط للتعامل بين الملل والنِّحَل لتحقيق التوادِّ والسِّلْم بينهم، منها: "الأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد، والأنبياء إخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة، وعلى المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعاً، وأن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها، بل لابد فيها من الإقناع والرضا، وأماكن العبادة للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين، ولا ينبغي أن يؤدي اختلاف الناس في أديانهم إلى أن يقتل بعضهم بعضاً، أو يتعدى بعضهم على بعض، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر، أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه فلله وحده هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة، وأن التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه وللناس من خير وبر، وأن الاختلاف في الأديان لا يحول دون البر والصلة والضيافة، وإن اختلف الناس في أديانهم فلهم أن يجادل بعضهم بعضاً فيها بالحسنى"22.

ويرى الدكتور شوقي أبو خليل أن: "مفاهيم الصفح والإحسان وما يقابلهما من نهي عن التعنت والتعصب والتطرف والغلو كلها تعطي صورة متكاملة للتسامح في القرآن الكريم"23.

وقد طبَّق النبي ﷺ الحرية الدينية تطبيقًا عمليًا حين أقرّها في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ)24.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير على دربه ويطبق ما رسمه الله تعالى للدعاة حين دخل بيت المقدس حيث "أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدَم،

20- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة السادسة، 2005م:37 .

21- المرجع السابق:38.

22- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع بيروت ، الطبعة الأولى، 1420 ه 1999 م): 130-132.

23- التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر بيروت، الطبعة الأولى، 1414 ه1993م: 42.

24- السيرة النبوية لابن هشام، تعليق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة، 1410هـ 1990م:55/4.

ولا يُنتقَصُ منها ولا مِن حيِّزِها، ولا من صليبهم، ولا مِن شيء مِن أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحدٌ منهم"25.

ويظهر التسامح جلياً حين استقبل النبي ﷺ وفد النجاشي من نصارى الحبشة، حيث "قَامَ يَخْدُمُهُمْ بِنَفْسِهِ، فَقُلْنَا [أي الصحابة]: تُكْفَى ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ)"26.

كما استقبل وفد نصارى نجران، ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، مع أبي حارثة أسقفهم وحَبْرِهم وإمامِهم، وفرَش لهم عباءته، حيث (دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِهِ، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «دَعُوهُمْ»، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ)27.

وقبل النّبيُّ ﷺ هديةً من المقوقس في مصر، وهي الجارية (مارية القبطية) التي أنجبت إبراهيمَ ولد المصطفى ﷺ، ثمَّ وقف فقال: (إِذَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا)28.

وسأضرب مثالاً عن تسامح الديني لدى أحد السلاطين العثمانيين مع اليهود في إقامة طقوسهم الدينية: "فحائط المبكى هذا الذي يعتبره اليهود اليوم أقدس ذكرياتهم استعادوه في عهد السلطان سليمان القانوني (العاشر الهجري) القرن السادس عشر الميلادي، كما جاء في عدد (23 ربيع الأول 1387 هـ الموافق 1 يوليو 1967م) من النشرة الرسمية التي تصدرها حكومة إسرائيل في بومباي، بعنوان: أخبار من إسرائيل، أن حائط المبكى كان منذ زمن بعيد مختفياً بين الأنقاض، وأكداس القمامة،.. فلما علم السلطان سليمان ..، أرسل إلى حاكم القدس التركي يأمره بإزالة ما عليه وتنظيف المنطقة، وسمح لليهود بزيارته"29.

وسأنقل من كتابات بعض المرتابين وماذا قالوا عن التسامح الديني في الإسلام، فقد قال [روبرتسون] في كتابه (تاريخ شارلكن): «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية».

وقال [ميشود] في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): «إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدَمَهم من الضرائب، وحرَّم محمد -ﷺ- قتْل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمسَّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس».

وقال الراهب [ميشود] في كتابه (رحلة دينية في الشرق): «ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»30.

وقال [سير توماس، وأرنولد]: "وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير في ظل ذلك الحاكم، الذي عرف بالتسامح الديني، فقد خففت الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وزال بعضها جملة، وملئوا الوظائف العامة؛ كوزراء، وكتاب، وصيارفة، وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان"31.

وتقول المستشرقة الألمانية [زيغريد هونكه]: "لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع الأمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق يمنعهم، بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى. أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟"32.

25- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (د.ت):3/ 609.

26- مكارم الاخلاق لابن أبي الدنيا، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُكَافَأَةِ بِالصَّنَائِعِ، حديث رقم 361.

27- دلائل النبوة للبيهقي ، رقم الحديث: 2133.

28- المعجم الكبير، للطبراني، مَا أَسْنَدَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، حديث رقم 14854

29- احذروا مخطط اليهود، لأبي الأعلى المودودي، تعريب: أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، (د.ت): 8-9.

30- انظر هامش الصفحة (138) من كتاب: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة، عادل زعيتر، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م :291.

31- الدعوة إلى الإسلام، تأليف: سير توماس، وأرنولد: 99.

32- شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوربة، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وغيره، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثامنة، 1413هـ 1993م: 364.

وهكذا كان التسامح الديني في أبهى صوره حتى في عيون المرتابين وأعداء الدين، أما عند التأمل في كتابات الدارسين اليوم فنجد أنهم يركزون على التسامح الديني الذي تمارسه الدولة بين الملل والنِّحَل المختلفة وخاصة اليهود والنصارى، وهي صورة متردية بسبب الواقع المزري الذي يعكس حالة التخلف السياسي والاقتصادي والتربوي والتعليمي.

المطلب الثاني: التسامح السياسي

تعتبر التربية على التسامح السياسي والتعايش السلمي غاية إنسانية نبيلة تسعى البشرية لتحقيقها على امتداد تاريخها الحضاري، فهي دعوة للسلام مع الذات والآخر، وهي تنطلق من الدائرة الأوسع أي الدول والشعوب إلى الدائرة المتوسطة أي الجماعة فالأصغر أي الأسرة وصولاً إلى الإنسان نفسه، فلا تتحقق قيمة الإنسان ولا يشعر بحياته وحريته ما لم يشعر بالسلام وتقبل الآخرين له.

وعلى الرغم من أن كثيراً من فلاسفة عصر التنوير دعوا إلى التسامح الديني إلا أنهم أهملوا (التسامح السياسي) إذ أن الاختلافات في الأيديولوجيات السياسية التي ظهرت لاحقاً قد تسببت في مقتل وتشريد سبعين مليون إنسان تقريباً في عموم المعمورة في حربين عالميتيْن مدمّرتيْن، ولا تزال الأيديولوجيات السياسية تفتك بخصومها حتى يومنا هذا.

إن التسامح السياسي: هو ضمان الحقوق للأفراد من قبل السلطة وفيما بينهم داخل المجتمع، أو هو: "التسامح الذي تمارسه الدولة مع رعاياها من الأقليات العرقية التي يسود التوتر علاقاتها ببعض على الرغم من أنها تنتمي إلى دين واحد ومذهب واحد، إلا أنها تتحدث بلغات مختلفة، وتحمل ثقافات وعادات مختلفة، والحل الذي تقدم الدولة يتحقق في ظل نظام ديمقراطي تعددي، وفرص عمل وتعليم متكافئة، وضمانات اجتماعية وصحية للمواطنين دون تمييز"33.

ومن واجب الدولة تجاه رعاياها كما ذكر (جون لوك) في رسالته عن التسامح التي كتبها قبل قرون، وفي ظل القتال الدموي المرير بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث قال في طياتها:

"ويبدو لي أن الدولة مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات المدنية والحفاظ عليها، وتنميتها، وأنا أعني بالخيرات المدنية: الحياة، والحرية، والصحة، وراحة الجسم، بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل المال، والأرض، والبيوت، والأثاث، وما شابه ذلك34".

لقد اقتَضَتْ سنَّة الله جلَّ جلالُه في الكون أنَّ الناس مختلفون في ألوانهم، وألسنتهم، ومعتقداتهم، وأديانهم؛ مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[الروم:22]، كما اقتضتْ قدرته ﷻ على عدم رفْع الاختلاف وإزالته بين البشر؛ وهو اختلاف تنوع في الأمزجة والطباع والميول والاتجاهات والمواقف، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة الكونية والاجتماعية، حاثّاً من خلالها إلى احترامها وتقديرها بالتعارف والتعايش والتعاون والتكامل، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:118-119].

والإسلام يقرر مبدأ المُساواة المطلَقة بين الناس، وردهم إلى أصلٍ واحدٍ؛ لأن ربَّهم واحد، وأباهم واحد، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13] وهذا مما يملي علينا عدم ازدراء الآخرين، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، وهو مما يحدو بنا نحو معاملةٍ أسمى مع الآخرينَ، دون نظر إلى النَّفْس بزهوٍ وافتخار، وإلى الآخرين بازدراء واحتقار.

ويحذر الإسلام من نقض العهود والمواثيق طالما هي موافقة لمنهج الله وشرعه، ومتمشية مع المصالح العامة، بل سمى العهد مع الناس عهداً معه سبحانه وتعالى ليستحثهم على الوفاء بالعهود وعدم نقضها، فقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:91] وذلك لتبقى جانب الثقة في التعامل بين الناس، لأنها فضيلة إنسانية لا يختص بجنس أو عقيدة أو جماعة، ولذلك شدد في جانب الوفاء بالعهد فقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34]، وجعل الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين المتقين فقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177].

فالمعاهدون لهم علينا الوفاء بعهدهم طالما لم يخالفوا بنود المواثيق والعهود، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

33- مقومات التسامح الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم، د .نجم عبد الرحمن خلف وغيره، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، العدد1 ، المجلد1، كانون/ أبريل 2015 م: 66.

34- رسالة في التسامح، جون لوك (1704 – 1632م)، ترجمة: منى أبو سنة، مراجعة وتقديم :مراد وهبة، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 1997م: 23.

[التوبة:4] وبفضل هذه العهود رعت بعض البلاد الإسلامية كمصر.وسورية أقليات دينية يهودية ونصرانية لعدة قرون، وما زالت هذه الأقليات تحظى برعاية المجتمع الإسلامي، ولذا جعل النبي ﷺ نقض العهد من صفات المنافقين فقال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)35.

والآيات الدالة على التسامح السياسي كثيرة ووفيرة، فكل آية تأمر بالعدالة والشورى والإنصاف والوقوف على قدم المساواة بين البشر أمام القضاء والمحاكم دون النظر في اللون أو العِرق أو النسب كلها دعامة للتسامح السياسي، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:38].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:58].

فالتسامح السياسي يستلزم الاحترام والتقدير والتقارب بين الأمم والشعوب وفقاً لمنطوق الآيات التي تحمل على التعاون في نطاق الدائرة الإنسانية المشتركة، والتي يعود نفعها على الجميع، وذلك دون المسَاس بدائرة الخصوصية أو انتهاك لذاتيتها، واتساقاً مع تلك الدعوة إلى حُسن التعامل مع الآخرين، فالثوابتُ لا تخضع للمساوَمة أو التنازُل، أمَّا المتغيرات؛ فإنَّ للمرء أن يعيدَ النظر فيها، في ضَوْء ما يستجدُّ في واقعِه وزمانه ومكانه مِن أوضاع فكريَّة، أو اجتماعيَّة، أو سياسيَّة، أو ثقافيَّة، وذلك بُغية ترجيح ما يتناسب مع زمانه ومكانه وواقعه .

وبناء على هذا يمكن الرد على من يصفون التسامح السياسي المشروع بالتمييع للدين، بأن: التمييع وأخذ المواقف الوسطية، أو إمساك العصا من المنتصف _كما يقولون_ لا مدخل له في ثوابت الدين، وأن التعايش لا يستلزم هذه التهمة، بل التسامح السياسي هو جوهر الدين ولُبُّه، إذ لو لم يكن ثَمّ تسامح وتعايش بين الأديان والمذاهب والأفكار لما تمكّن أحد من المسلمين أن يوصل الإسلام إلى غير المسلمين، ولا أن يوصل الحق إلى أهل الباطل.

ويُؤَكِّد النبي ﷺ تعايشه سياسيًّا بالمراسَلات والمخاطَبات، التي كانتْ تتمُّ بينه وبين سادة القبائل والأمم والشعوب، ورسائله إلى الملوك والأمراء آكدُ تعبيرٍ عنِ الرغبة الصادقة في التواصُل مع الآخر.

ومن التسامح السياسي حَثُّ النبي ﷺ بعضَ أصحابه؛ على تعلُّم السُّرْيَانِيَّةَ وهي العبرانيَّة، فقد قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ("تُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟ إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ" قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: "فَتَعَلَّمْهَا " فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا)36.

وكذلك أقرَّ الحبشة وهم يلعبون في المسجد على التعبير عن ثقافتهم في رحاب مسجده ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: «فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقُمْتُ عَلَى الْبَابِ أَنْظُرُ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ»37.

ونجد قمة التسامح السياسي ما حوته الوثيقة النبوية في المدينة المنورة، هذا الدستور الذي يهدف بالأساس إلى تنظيم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة، وعلى رأسها المهاجرين والأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم، يتصدى بمقتضاه المسلمون واليهود وجميع الفصائل لأي عدوان خارجي على المدينة..

وبإبرام هذا الدستور –وإقرار جميع الفصائل بما فيه رئيسها الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، صارت المدينة دولة وفاقية، وصارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية، وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل وغيرها.

ومن بنود هذه الوثيقة العظيمة حماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَمَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَلَهُ عَلَيْنَا الْأُسْوَةُ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرَ عَلَيْهِمْ)38 وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين، فلهم – إذا خضعوا للدولة – حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها.

ومن ضوابط التسامح السياسي النظر إلى المقاصد والمآلات، فلقد كان فقهاؤُنا - فيما مضى- يَتَحَدَّثون عن حُرْمة السفر بالمصحف إلى ديار الكفَّار، وكانوا مصيبينَ في ذلك غاية الإصابة في ظل السياقات التاريخية والسياسية السائدة يومئذٍ،

35- رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: 34.

36- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001م: 463/35، رقم الحديث: 21587.

37 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه، رقم الحديث: 892.

38- مراسيل أبي داود، مَا جَاءَ فِي الطِّيَرَةِ، حديث رقم 515.

واليوم نفس هـؤلاءِ الفقهاء يتنافسـونَ في حثِّ الأمة على طباعة المصاحف، وترجمة معانيها، ونقلها إلى هـذه البلاد، ويعتبرونها قُربة من أَجَلّ القُرُبات، وهـم اليوم مُصيبونَ في ذلك أيضًا غاية الإصابة؛ لتَغَيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والظروف والأحوال.

المطلب الثالث: التسامح الاجتماعي

ويظهر هذا التسامح الاجتماعي في النشاط الذي تقوم به المؤسسات الخاصة العلمية والبحثية والاقتصادية والفنية والثقافية التابعة للأعراق والأقليات المنتشرة في المجتمع من أجل تحقيق مصالحة وتقارب واندماج بينها بعيداً عن تدخل الحكومة أو بإشراف استشاري بعيد منها على هذه الأنشطة والفعاليات.

أما أساس التسامح الاجتماعي في القرآن الكريم فقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

فالخطاب هنا عالمي للبشر. قاطبة على اختلاف مللهم ونحلهم، والدعوة التعارفية التي ينادي إليها دعوة للتصالح والتسامح الاجتماعي والتثاقف العلمي والتكامل المعرفي، لا للتحارب وإلغاء بعضها بعضاً، ومن الملفت للنظر أن هذه الآية نزلت في سياق حدث اجتماعي يتضمن مجموعة من القيم الأخلاقية، إذ جاء مجموعة من الأعراب من البادية إلى بيوت النبي صلى الله علي وسلم وقد ركبتهم الظنون قائلين لأنفسهم: "انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملِكاً نَعِشْ في جناحه"39، فلم يحزموا أمرهم في التعامل مع الدين الجديد، وإنما جاؤوا بدافع المصلحة، ولم يحسنوا التواصل مع النبي صلى الله علي وسلم سواء أكان نبياً في ظنهم أم ملكاً، فأظهروا جلافة كبيرة في نداء النبي صلى الله علي وسلم وحثه على مقابلتهم والاستماع إليهم، فتضمنت هذه السورة العديد من الفضائل والقيم الأخلاقية التي تسهم في بناء التسامح الاجتماعي، ابتداء بأدب الحديث مع حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومروراً بطريقة التعامل مع الأخبار المضللة بِكمة وصبر، وتحكيم الصبر والتقوى في فض الخصومات بين الفرق الإسلامية المختلفة، وانتهاء بالنهي عن الظن الفاسد والتجسس والغيبة، ثم الدعوة إلى إنعام النظر في الحكمة الإلهية من تنوع الألسن والثقافات وتعدد الأعراق، ونصب مقياس التقوى للتفاضل بدل مقياس النسب والحسب والمناصب والمال.

كما أن الآية تشير إلى أن تنوع الألسنة والألوان والعادات سمة جمالية للحضارة، ومدعاة إلى الثراء الثقافي، ومعلوم أن التنوع العرقي آية من آيات الله في الكون لمن يتبصر ويعقل كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:22].

أي: من آيات الله وحججه وبراهينه الدالة على قدرته، اختلاف ألسنتكم: أي لغاتكم من عربية وعجمية وألوانكم: أي من أبيض وأصفر وأحمر وأسود والكل أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، إنها آية للعالِمين.

ومن الآيات التي تصب في هذا التسامح الاجتماعي، قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]. فهذه الآية من جوامع الكلم والحكم حتَّى أنها كانت وحدها سبباً في إيمان الصحابي الجليل عثمان بن مظعون40، فقد استوقفته الآية طويلاً وصرعت بقوتها الفكرية كل ظلال الوثنية والجهل في عقله، واستوقفت كذلك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فجعلها لازمة من لوازم خطبة الجمعة ولا زالت إلى يومنا هذا تقرع الأسماع، فكلمة (العدل) في الآية تعني الإنصاف في كل شيء، ويلزم من ذلك الإقرار بثقافة الآخرين وعدم البغي عليهم والسعي إلى عقد روابط التآلف ونزع فتائل الخصام والكراهية، ويتوزع في هذه الآية التسامحان السياسي والاجتماعي كفافاً وانتصافاً، فتحقيق العدالة والقضاء على الظلم والبغي من وظائف الدولة ومنوط بمؤسساتها، كما أن تمتين العلاقات النسبية والتناهي عن الفحشاء والمنكر من وظائف المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي تديرها الأعراق المتعددة.

ومن الآيات التي تصب في بوتقة التسامح الاجتماعي، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34].

أي: إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة، التي هي أحسن، فلا تدفعها بالحسنة التي دونها فكيف بالسيئة؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب، فإن قابلتها بمثلها كنت منحطاً إلى مقام النفس، متبعاً للشيطان، سالكاً طريق النار، ملقياً لصاحبك في الأوزار، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار، متسبباً لازدياد الشر،

39- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ 2000م: 284/22.

40- مسند أحمد ابن حنبل، مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ، حديث رقم 2835.

معرضاً عن الخير41، وهذه الآية تأمر بفضيلة أخلاقية تقوي الصلات الاجتماعية وتعظم التسامح، وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته، كنى به عن الولي المخلص في ودِّه، لما يجد في نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو موالي.
وإنما أمرَ اللهُ الرسولَ ﷺ بأن يدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لأن منتهى الكمال البشري خُلُقُه، كما قال عليه السلام: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)42 وقالت عائشة لما سئلت عن خلُقه: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)43 لأنه أفضل الحكماء، وتخلُّقُ الأمة بهذا الخلق مرغوب فيه قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:40].
وهذه الآية إطار كبير للتسامح في دائرة العلاقات اليومية في العمل والتجارة وصفوف الدراسة والتدريس، وشبكات العلاقات الأسرية والقرابات، ومحاكم الأحوال الشخصية، وقضايا الديات والثارات والنعرات العشائرية، فهي آية عامة عن التسامح الاجتماعي وإنَّ جاءت في سياق العقوبات والمعاملة بالمثل، وهل يتحقق التسامح بين أفراد المجتمع إلا إذا وجد أناس يتنازلون عن حقوقهم طواعية ابتغاء مرضات الله لا طمعاً في الديات والغرامات؟
وفي هذا السياق يأتي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:22]. داعماً لهذا التوجه الأخلاقي النبيل، فقد كان من جملة الخائضين في حديث الإفك "مِسْطح بن أثاثة" وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية، ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده، بالعفو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.
وفي سياق التسامح الاجتماعي ما خَصَّ الباري ﷻ أهل الكتاب في تعاملهم مع المسلمين بأحكام منها: إباحة نكاح نسائهم، وإباحة الأكل من طعامهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:5].
وقد كان نبينا وقدوتنا يزورهم ويحسن إليهم ويعود مرضاهم، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ)44.
وأهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه برداً وكتب له، وتوفي ودرعه مرهونة عندي يهودي بثلاثين صاعاً من شعير.
ومن ضمن عمل المؤسسات الشعبية لتحقيق التسامح الاجتماعي يدخل سهم (المؤلفة قلوبهم) بسلاسة وانتظام، فسهم المؤلفة قلوبهم ثبت بنص القرآن الكريم في قول تعالى :﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:60].
فذكر الإمام الطبري أقوالاً ثم قال: "والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته. فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يُعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين. وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا، للغزو، لا لسدّ خلته. وكذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده. وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن

41- تفسير محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي.
42- السنن الكبير للبيهقي، كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ: بَيَانُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا الَّتِي مَنْ كَانَ مُتَخَلِّقًا بِهَا، حديث رقم 19096.
43- مسند أحمد ابن حنبل، حَدِيثُ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث رقم 24747.
44- رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ حديث رقم: 1356.

فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجة لمحتجّ بأن يقول: "لا يتألف اليوم على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم"، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت"45. فالآية الكريمة مؤشر عملي على التسامح الاجتماعي.

ومن الضروري تشجيع الأقليات على إظهار ثقافتها الخاصة والاعتزاز بها لا وأدها وتغليب ثقافة الأكثرية، وهذا التشجيع يقضي بمرور الزمان على حالات الاحتقان والكراهية ويجعل التعرف على الآخر وظيفة اجتماعية روتينية؛ أما دعاوى تغليب ثقافة الأقليات لتحقيق الوحدة ونزع فتيل النعرات القومية فهي دعوات براغماتية فشلت في تحقيق طموحاتها وزرعت الضغائن بين الأقليات وألهبت شعور المظلومية المهيمن عليهم في الأصل.

ومن الطريف أنَّ ممارسات التسامح الاجتماعي الداعية إلى إظهار ثقافة الأقليات، بل والاعتزاز بها دونما تطرف كانت معروفة في التاريخ الإسلامي في ظل سيادة الدولة العباسية، فكان بلاط الخليفة مسرحاً خصباً لتجليات التنوع الثقافي وتكاملها، قال خلف بن المثنى: "لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجامع (وهو خارجي صفري)، وبشّار بن بُرد (وهو شعوبي خليع ماجن)، وحمّاد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصرانِّي)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحرّاني الشاعر (وهو صابئي)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم"46.

وفي العصر الحديث لما وقعت حادثة انفجار المبنى الفيدرالي في ولاية أوكلاهوما سيتي بأمريكا، في (ذي القعدة 1415 هـ الموافق إبريل 1995م) اتُّهِم المسلمون مباشرة، "ولكن المسلمين هناك ضربوا مثالاً رائعاً في التسامح، فقد سارعوا بتنظيم حملات التبرع بالدم وتقديم الإعانات لأسر الضحايا، وتبرعوا بمبلغ 10000 عشرة آلاف دولار، باسم الجالية الإسلامية، وشارك الأطباء المسلمون في معالجة الضحايا منذ البداية، ثم قبض على مدبري التفجير، وكانا نصرانيين"47.

فتحقيق التسامح الاجتماعي مرهون بنظام يكفل الحريات والمساواة، ولا بد من دعم بعض الخطوات الحضارية لتحقيق الإخاء والتسامح، ومن ذلك الإسهام في تأسيس ودعم الجمعيات ومنظمات المجتمع المدني التي تبث روح التسامح وتلغي الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع.

الخاتمة

بعد هذه النصوص الشرعية الإسلامية؛ وشهادات بعض المفكرين من غير المسلمين؛ هل يصح أن يصف أَحَدٌ الدين الإسلامي بأنه دين إقصائي؛ أو أنه دين يدعو إلى التطرف وعدم التسامح، أو أنه يزرع الحقد والكراهية في نفوس أتباعه؛ أو أنه قهر مخالفيه؟!

إن التسامح زينة الفضائل، ومن أسمى الصفات التي أمرنا بها الباري عزّ وجلّ وحثنا عليها رسولنا الكريم، ولقد شهد الأعداء بتسامح الإسلام، حتى قال (غوستاف لوبون) وهو يتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين: «وكان عرب إسبانيا - خلا تسامحهم العظيم - يتصفون بالفروسية المثالية؛ فيرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً»48.

فالتسامح هو العفو عند المقدرة، والتجاوز عن أخطاء الآخرين ووضع الأعذار لهم، والنظر إلى مزاياهم وحسناتهم بدلاً من التركيز على عيوبهم وأخطائهم.

وقد توصل الباحث من خلال ما سبق إلى أهم النتائج، وهي:

- السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها، والتسامح بكافة أنواعه يؤسس للتفاعل الإيجابي الرشيد، بغية التفاعل الحضاري الإنساني.
- التسامح لا يعني التنازل عن المبادئ والثوابت، بل يعمد إلى توثيق أواصر الأخوة الإنسانية.
- الإسلام دين التسامح في جميع مجالات الحياة، حتى مع العدو المخالف، ولو في الحرب.

45- جامع البيان في تأويل آي القرآن، تفسير الطبري: 316/14.

46- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، دار الوراق، بيروت، الطبعة الأولى، 1320هـ 1999م: 143.

47- لقاء مع مدير مركز دار الهجرة في واشنطن، حاوره: أحمد منصور، مجلة المجتمع، العدد 1186، (1416/9/10هـ الموافق 1996/1/30م) صفحة:38-39.

48- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة، عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م :291.

- لم ترد كلمة (التسامح) بلفظها في القرآن الكريم، لكن ورد في نصوص القرآن كثير من التوجيهات الداعية إلى الرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين، كالصفح والعفو، والسلام ونحوها.
- الخلاف في الأديان واللغات والقوميات سنة كونية وظاهرة بشرية لا ينبغي أن تكون سبباً للخصام والعداء، بل يجب استثمارها لصالح الإنسانية، على أساس الاحترام المتبادل.
- التسامح أنواع كثيرة، بعضها أشمل من بعض، وبعضها متداخل مع بعضها الآخر، لذا قسمته إلى ثلاثة أنواع أساسية: التسامح الديني، والتسامح السياسي، والتسامح الاجتماعي.
- الأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلةً لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله تعالى على مدى التاريخ الإنساني، ومن أصول الإيمان في الإسلام: الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي، وهذا أساس متين في التسامح الديني.
- التسامح الديني الذي تمارسه الدولة اليوم بين الملل والنِّحَل المختلفة وخاصة اليهود والنصارى، هي صورة متردية بسبب الواقع المزري الذي يعكس حالة التخلف السياسي والاقتصادي والتربوي والتعليمي.
- طبَّق النبي ﷺ التسامح الديني تطبيقًا عمليًا حين أقرَّه في أوَّل دستور للمدينة المنورة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، واستقبل وفد النجاشي من نصارى الحبشة، كما استقبل وفد نصارى نجران وأكرمهم، وعلى دربه سار الخلفاء الراشدون.
- التسامح السياسي هو جوهر الدين ولُبُّه، إذ لو لم يكن ثَمّ تسامح وتعايش بين الأديان والمذاهب والأفكار لَما تمكَّن أحد من المسلمين أن يوصل الإسلام إلى غير المسلمين.
- للتسامح السياسي ضوابط كالنظر إلى المقاصد والمآلات، ولذلك تتغيَّرُ الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والظروف والأحوال.
- فئة من المرتابين ينظرون إلى التسامح الديني من خلال تصيُّد بعض الآيات المبتورة عن سياقاتها، والتي يوحي ظاهرها بالتعصب الديني، وذلك للطعن في تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، طبعة 1984هـ.

ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر.وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ - 2004م.

ابن هشام، السيرة النبوية، تعليق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة، 1410هـ 1990م.

أبو خليل، شوقي، التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق، دار الفكر المعاصر بيروت، الطبعة الأولى، 1414 هـ1993م.

البوطي، محمد سعيد رمضان، الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى، 1414هـ 1993م.

توماس، سير، وأرنولد، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر.العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1971م.

الحسين، عبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف، تسامح الغرب مع المسلمين في العصر.الحاضر، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1419هـ 1999م.

خلف، نجم عبد الرحمن وغيره، مقومات التسامح الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، العدد1 ، المجلد1، كانون/ أبريل 2015م.

السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ 1999م.

الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (د.ت).

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ 2000م.

الغزالي، محمد، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، دار نهضة مصر، الطبعة السادسة، 2005م.

الغشيمي، عبد الواسع محمد غالب وغيره، التسامح الإسلامي، قراءة في معطياته الفكرية وآثاره الواقعية في ضوء الكتاب والسنة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد:21، ربيع الأول 1434هـ فبراير 2013م.
القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964م.
لقاء مع مدير مركز دار الهجرة في واشنطن، حاوره: أحمد منصور، مجلة المجتمع، العدد 1186، (1416/9/10هـ الموافق 1996/1/30م).
لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م.
لوك، جون (1704 – 1632م)، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، مراجعة وتقديم :مراد وهبة، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 1997م.
المجلات والدوريات:
المودودي، أبو الأعلى، احذروا مخطط اليهود، تعريب: أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
المودودي، أبو الأعلى، التسامح في الإسلام، مقال، تعريب محمد عاصم الحداد، نشر في مجلة (دعوة الحق) المغربية، العدد:21.
النبهان، محمد فاروق، مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، بحث منشور في مجلة المنهل، العدد 518، مجلد 56، ربيع أول 1415هـ أغسطس 1994م.
هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوربة، ترجمة: فاروق بيضون وغيره، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثامنة، 1413هـ 1993م.